قصة قصيرة

ملامح

رنا ادريس

بعد أن استَلْقَت على الشاطىء، دَفنت جسمها في الرمل الساخن. أغمضت عينيها وأهدت الشمس حياتها. فكرت بالمقاتلين الذين توقّف زمنهم بعد انفجار قنبلة، وبالنساء اللواتي اكتفين بليلة حب واحدة ليبرّرن وجودهن، وبالرجال الذين يبحثون دون ملل عن المرأة. وتذكرت ذاك الذي كان يفتح الأبواب إلى ما لا نهاية لأنه كان يبحث عنها. وكان هذا البحث نشاطه الحصريّ، يقوم به بكلّ إخلاص. وتتالى الأبواب، واحداً بعد الآخر، دون أن تكشف عن الكائن المنتظر. وكان يواجه تلك الأبواب بحذر مضحك. فيجلس حيناً عند العتبة، ظنّاً منه أن الباب سيفتح من الداخل. ويتسلّق حيناً سلالم البيت الخارجيّة متربّصاً فوق سفحه لينقضّ على الفريسة. أو يعود ليزور الأماكن نفسها لدراسة تفاصيل «الظهور»، حتى باتت الصدف معروفة لديه. ثم يقول بصوت مؤثّر وعيناه تحدّقان بالسماء: «سأنهال كالعاصفة التي تتوقّف في منتصف السماء لتختار شجرتها. وستكون مجهولتي قريبة مني، حتى في مخاوفي. وستريحني». ويضيف الباحث عنها، منتفضاً هذه المرة، محدّقاً بالأرض: «ستريحني؟ لا، لن تريحني، لأنها سرعان ما تختفي من جديد، كصورة سريعة على زجاج مُغبّش. وتنكسر كحلم نذكره لحظة، ولكن لحظة فحسب. ولن تدعني أمسك يدها لأستمع إلى قصّة كل إصبع منها. وستنظر إليّ لا مبالية، لأنها تعلم أنها سترحل. وتُفهمك بأن كثيرين هم الذين حاولوا، وقد أضنتهم الوحدة، أن يجعلوا منها امرأتهم، أو صورة يعلّقون عليها آمالهم. والحقيقة أنها كيفما تقدّمت، تلمس قدماها باقة الوداع الملوّنة. إنها المسافرة. ليسوا كثيرين أولئك الذين يستطيعون أن يقولوا إنها جميلة، لكنهم جميعاً رأوها تُجمّل الأرصفة التي تمرّ بها. وتترك وراءها نعومتها وترحل. إنها المسافرة. فكيف لها أن تريحني؟»

شعرتْ مرة أخرى بدفء الرمال. مالها تفكّر بالباحث «عنها»؟ وفيما كانت تراقب الأمواج تعود أدراجها نحو الشاطىء الجافّ، تراجعت أسرع نحو الذكريات. فالباحث يبحث عن التي سترحل، لأنها تضمن استمراريّة بحثه. إلا أن ثمة رجالاً من نوع آخر، منهم من يركز على نقط ضعفها، فترغب في التمرّد وتبتعد. ومنهم من يشكرها لصداقتها وثقافتها العالية ويبتعد معجباً. ومنهم من يكشف أوراقه ويستلقي على بطنه ويندب حظّه، فتملّ من همومه وترحل. ومنهم من يأخذ دون عطاء، من يطلب ويأمر، من ينادي ويشتم، ومن يتعلّق بعشبة نبتت دون إرادتها على صخرة جافّة، محاولة أن تقاوم وتنتهي الرواية قبل تطوّرها... ومنهم من يقول إنه تقدم في السنّ وشاب، ويبكي قليلاً لتفاوت الأعمار ويطلب الحنان.

وتتوالد الصور الواحدة تلو الأخرى، وتبقى صورة واحدة بلا ملامح. هذا الرجل، إن وجد هذا الرجل، فسيكون شكلاً آخر للحياة. وستتدّفق الابتسامات كأمواج نهر كثُرت ضفافه، ولن يكون له ذاكرة، ولا أصدقاء، ولا أقرباء. ولن يهتمّ بالوقت ولا التجاعيد. . . لعلّها تسمع خطاه عندما يهبط الليل.

وفتحت عينيها وأدركت أنها كانت وحيدة على الشاطىء الواسع. فنهضت ونظرت إلى الوراء، وتكوّمت ودارت حول نفسها مرات عديدة. وشعرت بشعاع شمس يتسلّل إلى جلدها ويكويه، ثم يغادره ممتداً بسرعة حتى يغطي الأرض والسماء. فتنحني الرمال تحت لهبه وتلتوي الأحضان. وللحظة تاه الشعاع.

أين اختفى الوجه الأسمر؟

* * *

- يا لها من صور متقنة! من يكون هذا العربيّ؟

- هذا الذي يحمل حقيبة من الخليج. وفي حقيبته دولارات أميركية. يأتي باستمرار إلى بلدنا ويقايض الدولارات بزجاجات وسكي. وهذه الصبيّة هي بائعة المرايا. وهي تدّعي أنها ترى داخلك. وتقول بعض الكلمات ثم تمدّ يدها طالبةً ثمن أتعابها. وهذا الذي يجلس هنا، عند زاوية الصورة، هذا هو أبو السّمك. وهو يعيش على بضع خطوات من هنا. لماذا لا نذهب لمقابلته؟ سيروي لك بنفسه قصته. لقد أصبح أبو السمك اليوم من أهم شخصيات البلد.

ووجدت نفسها تمشي وراءه، ولم تَرَ أمامها سوى كتفين كأنهما جبلان ينتصبان فوقها عالياً. ولم يعد بوسعها إلا أن تتراجع أكثر، أن تخضع لهذا الارتفاع المتحرّك وتنحني أمامه واختفى لون السماء فوق رأسها وزحمة الشارع أمام عينيها، وأصوات البائعين على الأرصفة. ولم يبقَ من الحياة المصرّية سوى جسمه الفارع. وإذ بها تسأله بلهجة غير متوقعة:

- هل والدك طويل؟

وأجاب ضاحكاً: جداً. لماذا؟ أطويل أنا؟

واستدار نحوها وتراجع قليلاً إلى الوراء. فتدفّق النور دفعة واحدة كشلاّل كان يحسبه سدّاً محكماً، وعائداً إلى اندفاعه السابق. وانجلت الدنيا بأسرها أمام نظرها. وأدركت أن جسده كان قد سبّب احتضار النور هذا. وشعرت كما لو أنها تتخبّط في بحر شاسع. وغمرتها الألوان والأصوات والحركات حولها. ثم توقّفت عن السير، وقد تاهت عيناها في هذا الفراغ المتزاحم الذي سبّبه غياب المنكبين. فقالت:

- أحبُّ نيل القاهرة.

هكذا تقاربا، ناسيَيْن أبا السمك.

بيروت

دار الآداب تقدم

دراسات إسلامية

سلسلة الاسلام الحضاري

■ الاسلام والمجتمع العصري	د. صبحي الصالح
■ ثورة العبيد في الإسلام	د. أحمد علبي
■ ١٠ ثورات في الإسلام	د. علي حسني الخربوطلي
■ فلسفة الإسلام في الإنسان	د. علي عيسى عثمان
■ إنسانية الإسلام	ترجمة د. عفيف دمشقية
■ كيف نفهم الإسلام	ترجمة د. عفيف دمشقية